

تاريخ الإرسال: 2025/07/24 تاريخ المراجعة: 2025/11/08

تاريخ القبول: 2025/11/30

نقد مرتكزات الحداثة الغربية في الرواية العربية الحديثة
Criticism of the foundations of Western
modernity in the modern Arabic novel

بريزة بهلول¹

مخبر التراث والدراسات اللسانية

جامعة الطارف (الجزائر)، bahloul-bariza@univ-eltarf.dz

الملخص:

حملت الرواية العربية الحديثة مرتكزات الحداثة الغربية بأبعادها المختلفة محاولة نقلها وتبني الخلفيات المرجعية والحضارية، التي ساهمت في تشكلها رغم الاختلاف الواضح بينها وبين الواقع العربي، الذي طوى في طياته مرجعيات فكرية وحضارية فرضت حضورها في واقع المنجز العربي في صورة ضمت هموم هذا الانتقال الذي تأرجحت تمظهراته بين القبول والرفض.

حيث سنعتمد في هذه الورقة البحثية الى استدراج مرتكزات الحداثة التي سجلت حضور بعضها على استحياء في الرواية العربية الحديثة، تماشيا والتطورات التي عرفتها الساحة الأدبية العالمية، وحضور بعضها الآخر في تمثّل كان أقرب الى تفريغ المحتوى الفكري والحضاري للرواية العربية من خلال ابعادها عن الواقع والظروف التي انتجت فيها، وهو ما اوقع هذا النوع من الدراسات في اشكاليات ذات ابعاد معرفية وفنية واجتماعية ارتبطت في معظمها بالآليات التي يتم اعتمادها اثناء

عملية الربط بين البعد المعرفي والفني كما قلنا من جهة ، وبينها وبين المجتمع من جهة أخرى وهو ما دفعنا الى طرح التساؤل الآتي: كيف تجلت مرتكزات الحداثة الغربية في الرواية العربية الحديثة؟

الكلمات المفتاحية: نقد-مرتكزات -الحداثة الغربية -الرواية العربية.

Abstract:

Modern Arabic novel has embraced the various dimensions of Western modernity, attempting to transfer and adopt the reference and cultural backgrounds that contributed to its formation, despite the clear differences between it and the Arab reality, which carries within it intellectual and cultural references that imposed their presence on the Arab reality in a form that held the concerns of this transition, whose manifestations oscillated between acceptance and rejection .

In this research paper, we will attempt to draw out the foundations of modernity, some of which have made a timid appearance in the modern Arabic novel, in line with developments in the global literary scene, while others have appeared in a form that is closer to emptying the Arabic novel of its intellectual and cultural content by distancing it from the reality and circumstances in which it was produced. This has led to problems of an epistemological, artistic, and social nature, most of which are linked to the mechanisms used to connect the epistemological and artistic dimensions, as we have said, on the one hand, and society on the other. This has led us to ask the following question: How are the foundations of Western modernity manifested in the modern Arabic novel.

Keywords :criticism; Western modernity; Arabic novel; foundations.

المؤلف المرسل: بريزة بهلول، الإيميل: BAHLOUL-BARIZA@UNIV-ELTARF.DZ

1. مقدمة:

تشكل الحداثة الغربية مرحلة من مراحل تطور الفكر البشري، والتي سعى من خلالها الإنسان إلى التحرر من كل أشكال التخلف والضعف، حيث تسلحت بمجموعة من المرتكزات التي عملت من خلالها على إعادة بناء علاقة الإنسان مع نفسه، وكذا علاقاته مع محيطه بكل ما تحمله هذه العلاقات التي دعت الحداثة إلى إعادة بنائها من ضوابط وقيود تجاوزت فكرة قابلية الإنسان للتغيير، وقدرته على الانسجام مع الواقع الجديد الذي يتوقف على طبيعة هذه المتغيرات في حد ذاتها، ومدى قدرتها على التأثير في الإنسان، وذلك من خلال إعلاء الذات وإعلان مركزية الإنسان، والدعوة إلى الحرية وكسر هذه القيود، ورفض التقاليد المعرفية السائدة في خطوة لا يمكن أن نصفها إلا بأنها مرحلة مؤسسة لمشروع نهضوي قائم على نتائج الفكر الغربي، وخلفياته الأيديولوجية المختلفة، والتي تركز في مجملها على رؤية معرفية جديدة، تؤمن بالتغيير وتمتلك خاصية مشاركتها مع المجتمعات التي تتقاطع معها معرفيا وإيديولوجيا، مشكلة بهذا نموذجا حداثيا نسبيا لكل مجتمع يسعى للتطور والتغيير في ظل اختلاف طبيعة المجتمعات .

وفي خضم الجدلية القائمة حول ماهية الحداثة وإمكانية توزيعها على عدة مستويات، تضمن فاعليتها كمشروع نهضوي متكامل، يمكن القول بأن الحداثة شملت كل مجالات الحياة على اختلافها بما فيها الأدب، هذا الأدب الذي اضطلع بمسؤولية تاريخية أشركته وعبر أزمنة مختلفة في التعبير عن واقع المجتمعات ورهاناتها المختلفة وتحدياتها المتنوعة، ولعل أقرب جنس أدبي استطاع أن يزاوج بين الفن والواقع هو الرواية متجاوزة بذلك كل الحدود ، رافضة للوهلة الأولى الاستسلام

للحادثة كمعطى مفاهيمي جديد وغير مألوف، تشعبت مرتكزاته واختلفت أهدافه ومراميها باختلاف المجتمعات، حيث استطاعت أن تلمم منتجات الحادثة ضمن معطياتها الفنية، معبرة في الوقت نفسه وبمكوناتها السردية المختلفة عن الإنسان وعلاقته بواقعه، وأبانت عن قدرات نسبية على تفسير هذا الواقع وفهمه ونقده، وهو ما سمح لها بأن تكون حقلاً تجريبياً للحادثة ومرتكزاتها في الوقت الذي شهدت فيه الحادثة في حد ذاتها ازدهاراً كبيراً للمفاهيم، ومحاولات للتنوع في مختلف المنظومات الفكرية الإنسانية.

وغير بعيد عن هذا فقد فرضت الرواية وجودها في الحياة الإبداعية العربية، مجسدة طرائق تأليفية جديدة، وإن لم تكن ناضجة في محاولاتها الأولى، إلا أنها استطاعت أن تؤسس لأعمال أدبية إبداعية، بدت وكأنها قريبة من الحادثة ومرتكزاتها خاصة مع المحاولات الواعية لبعض الروائيين العرب الكبار من أمثال: نجيب محفوظ، عبد الرحمن منيف، صنع الله إبراهيم، الطاهر وطار، عبد الحميد بن هدوقة، ياسمينه خضرا، الذين أتاحت لهم الفرصة لتشكيل عوالم روائية جديدة استفادت من التقنيات والفنيات السردية الحداثية، وأبانت عن مستوى لغوي تجاوز المألوف، خاصة مع استثمار التراث الروائي العربي وإقحامه في شبكة من العلاقات النصانية للوصول إلى نماذج تجريبية روائية حديثة، دالة بصورة كبيرة على حداثه الفكر العربي، الذي تموضعت معظم قوالبه الفكرية في إطار الحادثة الغربية بالقدر الذي يمكن أن تمنحه كل رواية بأطروحاتها المختلفة.

والسبب ربما في كل هذا يعود إلى طبيعة الرواية التي آمنت بقضايا المجتمع واتسعت لطرح انشغالاته، محاولة تشخيص أزماته وتجاوزها، في مواكبة صريحة ومعلنة للمتغيرات التي يشهدها العالم، لتصبح بهذا الجنس الأدبي الأكثر

تمثلاً لمرتكزات التغيير كمفهوم جوهري للحدث، والأكثر نقلاً- عن قصد أو غير قصد- لهذه المرتكزات الحدثية الغربية في الوطن العربي.

2. مفهوم الحدث:

يتعذر التحديد الدقيق لمفهوم مصطلح ما، خاصة ذلك الذي يحمل جدلاً إيديولوجياً وإبستمولوجياً كبيرين كمصطلح الحدث، فلا بد أن تشترك في تعيين حدوده مصطلحات تقارب مدلوله، وتتقاطع مع حقوله المعرفية.

1.2. مفهوم الحدث لغة:

ترجم التأصيل اللغوي الانجليزي " modernism و modernity " بـ: عصرية، ومعاصرة، وتجديد، وحدث...، والتعريب الأخير "الحدث" الأكثر ذيوفا واستعمالاً في الساحة العربية. ويعود إلى الجذر اللغوي «ح د ث»، وليس المصطلح بالمولد ولا المعرب، بل مادته أصيلة في العربية، تناولته المعاجم التراثية والقواميس المعاصرة المتخصصة، ومعناه " البدعة في الدين، والأمر الحادث: الأمر المنكر الذي ليس معتاداً، ولا معروفاً في السنة، ... ولفظ الحدث مصدر، يعني الصبا والجدّة والحدث من الأمر: أوله وابتدأه. والحدث هي الحدث والحدثان أول الأمر وابتدأه⁽¹⁾، فجاءت جل معاني الحدث عكس القدم، يسقط مدلولها على كل صورة جديدة مستحدثة لم تكن موجودة ولا متعارف عليها من قبل.

2.2. مفهوم الحدث اصطلاحاً:

لا تدل لفظة الحدث في معناها الاصطلاحي على مذهب محدد أو اتجاه معين أو فترة زمنية بعينها، تجعل منها بعداً أحادياً قاراً في إنتاجه، بل تجاوزت الحدود الزمانية والمكانية، وشملت جميع مناحي الحياة، فكل جدة مبتدعة حدثاً أياً كان مكانها أو زمانها أو مجالها. تعبر عن حركة، ينهض معناها المركزي «على مفهوم المغايرة، وتعارض الصيغ الحديثة مع كل ما هو تقليدي، ونمطي وأحادي»⁽²⁾

دالة على تفتح وعي الفرد الحداثي الذي ساءل العلوم الإنسانية قاطبة، فتقدم بتفكيره نحو فتح آفاق معرفية جديدة، تتغير معها أنماط العيش وأساليب الحياة.

أطلق مصطلح الحداثة في الأدب على «عدد من الحركات الفكرية الداعية إلى التجديد والتأثرة على القديم في الآداب الغربية، وكان لها صداها في الأدب العربي الحديث خاصة بعد الحرب العالمية الثانية»⁽³⁾ وارتبط مفهومه في الساحة العربية ارتباطاً وثيقاً بالأدب والنقد، فنجد أدونيس يصفها في مجال الشعر على أنها «سؤال جذري يستكشف اللغة الشعرية ويستقصيها، وافتتاح آفاق تجريبية في الممارسة الكتابية، وابتكار طرق للتعبير تكون في مستوى هذا التساؤل. وشرط هذا كله الصدور عن نظرة شخصية فريدة للإنسان والكون»⁽⁴⁾ فتتحدد الحداثة عند أدونيس في مجالي النقد والإبداع الأدبي في كونها لحظة اكتشاف الصيغ الأدبية وتقصي تلك الفنيات والميزات التي تجعل من نص ما أدبا، وكذا تصيد اللحظة الإبداعية للإنشاء والكتابة، وفتح الأفاق واستحداثها في ممارسة الإبداع ونقده، ولا يكون ذلك إلا بتجاوز البعد الشخصي الضيق، وامتلاك النظرة المستشرفة للوجود ككل.

يقترح خليل أبو جهجه في تعريفه للحداثة من الحدود اللغوية للمصطلح؛ إذ يعتبرها: «حركة إبداع تواكب الحياة في تغييرها الدائم، ولا تقتصر على زمن دون آخر، لأن أي تغير يطرأ على الحياة التي نعيشها من شأنه أن يبذل نظرتنا إلى الأشياء»⁽⁵⁾. وأن الحداثة تُجسّد في كل صورة جديدة خارجة عن ما تعارف عليه المجتمع، دون ربطها بالزمان ولا بالمكان.

3. مرتكزات الحداثة الغربية وتحليلاتها في الأدب:

نُعت عصر التقدم التقني والتطور التكنولوجي في القرن العشرين بعصر الحداثة والذي تحدد ميلاده مع المجتمع الغربي، نتيجة تحوله من الإقطاعية إلى البورجوازية

فالرأسمالية والاشتراكية، وترسخ بالتقدم التقني، وهو في الأدب مناقض للكلاسيكية منطلق مع الاتجاه الرومانسي. وقد اختلف في تحديد نشأته، فمنهم من « يعيدها إلى بداية التحولات الهامة التي شهدتها "البراكسيس" الاجتماعي في القرن الحالي، مع ظهور الإمبريالية، واندلاع الحربين العالميتين، وقيام الثورة الروسية 1905-1917 وهيمنة التقنية في السياق التراكمي، ومنهم من يعيد بداياتها إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، وبداية اختراع السيبرناتيقا، ونظرية الإعلام فقلبت الصناعة رأسا على عقب»⁽⁶⁾. لتتسم بذلك الحداثة بصورتها الأوربية الغربية، بالتحول السريع في مجالات الحياة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية الثقافية والأدبية.

1.3. مرتكزات الحداثة الغربية:

لقد قلبت التقنية الكثير من المسلمات المتوارثة والمعارف السابقة، وأخذت التكنولوجيا مكانها الأول في الحياة، وأثرت بكل مرتكزاتها على النشاطات المجتمعية وأساليب العيش الفرد والمجتمع، وبدأت مرحلة الحداثة التي اختلف فيها يومها التقني على اليوم الصناعي، وأخذ الإنسان يقرب المسافات البعيدة بوسائل الاتصال المختلفة، وأحدث النظام التقني إمكانية تفوقه في جميع المجالات، وسيطرته على العالم بأسره، فكان بذلك نظام الحداثة هو النظام الممكن لا النظام الواقع، وأصبح وجه المجتمع الحداثي المتحضر طابعه التقنية والمعلوماتية، والاتصال والشفرة وناطحات السحاب والعيش الرغد، بعيد عن العفوية والحرية الكاملة، خاضع لنظام صارم مدروسة خطته، ومتوقعة نتائجه.

وتبعاً لما سبق نوجز أهم مرتكزات الحداثة الغربية في النقاط الآتية⁽⁷⁾:

- مركزية الإنسان وترسيخ مبدأ الذاتية باعتبار الذات أساس العالم ومقياسه الوحيد.
- العدمية والعلمانية والمادية والابتعاد عن الدين والأخلاق والتحرر من كل قيد.
- فلقد تخلص الغرب عن كل معتقد أو دين يؤمن بالتقديس أو المسلمات الخارجة عن

عقل البشر، مما أوصلهم إلى علمانية مجسدة في أكبر المناهج المسيطرة على واقع الحياة البشرية.

- الإيمان بالعلم وبسط التقنية على كل مظاهر الحياة والنظر إلى الكائنات كما لو كانت أرقاما؛ أي إذلال الطبيعة وإخضاعها لخطرسة الإنسان.
- إعلاء سلطة العقل وعقلانية النظام وهيمنتته على كل مظاهر الحياة.
- التمدن والتحضر، والنمو التكنولوجي السريع وتجاوز الأنماط التقليدية السائدة بالرفض والتجديد. (8)
- التجريب واستحداث أنماط كتابة جديدة (الرواية، الشعر الحر)، وتجاوز المنحى التقليدي في الإبداع.

2.3. تجليات الحداثة ومركزاتها في الأدب:

بدأت الحداثة الأدبية الغربية مع نهاية الرومانسية وبداية الرمزية، وأشار خليل موسى⁽⁹⁾ إلى أن أول من استعمل هذا المصطلح "بودلير" المبدع الفرنسي وبين أنها ثورة على التقليد وعلى نظرية المحاكاة الأرسطية، فالفن حيلة وصنعة، همّه وهُمُّ الأدب معه تجميل القبيح وجعل الممكن واقعا. ودعّم أركان الحداثة "رامبو وبيرس وبروتون" وغيرهم من الرمزيين، حين سعوا إلى ما هو مثالي وممكن بواسطة اللغة، باعتبارها وسيلة التعبير وأداة لوجود الأدب، وهذا ما جعلهم يحدثون فيها التغيير، ويجعلونها سرا وغابة من الرموز التي من شأنها أن تجمع المتناقضات وتوحدّها، ثم سارت الحداثة بعد ذلك أشواطا مع مجلة "تل كل" *tel quel* " وغيرها من المجالات. ظهرت في الشعر مع بدايات الرمزية، وخرجت من معطف السريالية كما خرجت القصة من معطف "غوغول".

اعتمدت الحداثة الأدبية الغربية في انفتاحها على قضايا وصراعات سياسية واقتصادية وحضارية وتقنية، كان ميدانها الساحة العالمية، والبحث عن مناطق

للسيطرة، هذه السيطرة لم تعد عسكرية بقدر ما هي تقنية وتكنولوجية. فنقل الأدب هذه التحولات الحداثية، وطبع بمظهر التقنية المقابلة لمظهر الحياة العفوية الطبيعية، «فانست القصيدة بالاختزال والجسدية والشهوية والصنعة والثقافة والتقنية والقراءة، فابتعدت عن الخطابة والثرثرة والعذرية والمثال والعفوية والطبع والإنشاد»⁽¹⁰⁾ ليتحول الأدب صورة عن واقع تقني، نظامي... وتاريخ فني لكل فترة تواجدت فيها الحداثة.

أنتجت الحداثة الأدبية الغربية أعمالاً عالمية لا تقف عند حدود الأمة الواحدة؛ بل تطبع صورة عالم متعدد التوجهات والرؤى، فظهر الأدب الممثل للاتجاهات والمدارس الأدبية المتسمة بالأتساع: رومانسي - رمزي - واقعي سريالي - وجودي...، امتد تأثيرها إلى الساحات الأدبية العالمية، نسج على منوالها بمختلف لغات العالم.

حصر حسام الخطيب بعض المرتكزات الأساسية المشكلة لمفهوم الحداثة الأدبية عموماً، وهي الصدق - الرفض - التركيز على وجدان الإنسان وعالمه الداخلي - الشعور بإشكالية المصير الإنساني - معاناة الانسلاخ والغربة الروحية - النسبية والتحرر من القواعد.⁽¹¹⁾ وهي مقومات تعرف بها أي حادثة أدبية، لكنها تتغير بتغير الحداثة نفسها من أمة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، فالأهم تتبدل ومنه تبدل في التراث الثقافي وفنونه المتفرعة عنه. والحداثة كمعطى ثقافي واجتماعي، قيمها ودلالاتها مرتبطة بالبعد القومي وعوامله المؤثرة فيه والمتفاعلة في نتاجه، فتحمل أبعاداً ديناميكية متغيرة من نشاط اجتماعي إلى آخر لكنها تملك صفات عامة تجعل منها قدراً مشتركاً يرسم مؤثراته في الوجود ككل.

أما طلائع الحداثة الأدبية العربية فتعود إلى عصر الإحياء وتحدد ببدايات القرن 19، تاريخ التفاعل العربي مع غيره الغربي تولدت على إثره حركات عربية

فكرية وأدبية، عملت على إحياء التراث واستقبال التأثيرات الأجنبية، وجعلت الساحة الأدبية تخوض معارك فكرية أطرافها الأصالة والتحرر، وهذا ما أدى إلى انعطاف الرؤية الأدبية شعرا ونثرا ونقدا، وتكوين مسارات أدبية عديدة مرهونة بالفكر الغربي الوافد، والفكر العربي الإسلامي المتأصل.

لم تكن الحداثة العربية نتيجة طبيعية للتحوّل الحاصل في المجتمع، كما لم تكن بدعة نابعة من الفكر العربي المتطور والمستثمر لتراثه، وإنما هي نتيجة «لتحوّل المجتمع الأوروبي أولاً، ولقرب الوطن العربي من المركز ثانياً وأهمته ولخلق كيانات مجزأة، وزرع كيان غريب في جسد الوطن العربي، ولذلك كان على العرب أن يتهاافتوا على منجزات الحداثة للدفاع عن النفس أولاً، ثم لبناء مجتمع حديث، فجاءت الحداثة مقلوبة، دخل العرب عصرها مستهلكين»⁽¹²⁾ لتكون الحداثة مفروضة على الساحة العربية بسبب تخلفها، وتقدم المجتمعات الأوروبية عليها بأشواط.

إن تجلي ظهور حداثة الأدب العربي في النصف الثاني من القرن العشرين لا ينفي وجه تجذرها في الحضارة العربية قبل وجودها في الحضارة الأوروبية بقرون إذ أن أوربا «في نهضتها الكبرى عمدت إلى تَلَقُّفِ ثمرات النهضة العربية العباسية من طريق إسبانيا»⁽¹³⁾، وأن الحضارة العباسية قد أنقذت العالم من العصور الوسطى، فالتاريخ الذهبي للأمة العربية وعوامل نهضتها في العصر العباسي - نخص منها تفاعل ثقافتها العميق مع الثقافات الأجنبية المختلفة المشارب - حمل مظاهر الحداثة المطابقة لمفهوم بولدليز المتمثل في الثورة على التقليد، لتنوّع التأليفات والصنعة الأدبية بين أصيل ضارب في الروح العربية، وبين منفتح على رؤى مختلفة، كاسر للجمود الفكري بتحررٍ منبعه الأصالة والمعاصرة، وخير مثال نضربه عن ذلك شعر أبي نواس الحامل لأبعاد التجدد والتغيير. كما حملها في

العصر الحديث الشاعر أدونيس الذي لم يرحل عن ربوع التراث، وساهم في مزاجية رؤى فكرية عربية أصيلة بروى فكرية حديثة، فتق بها الحداثة العربية بنورانية التراث العربي القديم.

4. مرتكزات الحداثة في رواية العربية: نقد وتشخيص:

إن المتتبع لمسارات الحداثة في الرواية العربية الحديثة يجد تمثلاً متناقضاً مع الكثير من مرتكزاتها الغربية المذكورة آنفاً. فقد نقلت الرواية واقع الحداثة العربية المتذبذب، حيث تبتعد عنها المجتمعات الغربية بأشواط زمنية، قد لا تعد بالسنين إنما بالجيل والقرن.

ومن متغيرات واقع الحداثة العربية التي رصدتها الرواية الحديثة نجد منها ما يتماشى مع أصولها الغربية، ومنها ما يناقضها تماماً، نذكر منها:

- تبني الاشتراكية كدعوة للتجديد والتغيير.
- المدينة مركز تناقضات الحداثة العربية.
- تشظي الذات العربية بين الواقع والمأمول.

نحاول عبر هذه المتغيرات نقد مرتكزات الحداثة، وتشخيصها ضمن جدلية التمثل من عدمه، وتوضيح مدى تصوير الرواية العربية لحضور هذه القيم الغربية في مجتمعاتنا العربية الحديثة.

1.4. تبني الاشتراكية كدعوة للتجديد والتغيير:

لا شك أن الكثير من الروايات العربية في العقود الأخيرة من القرن الماضي -كروايات نجيب محفوظ، وعبد الرحمن الشرقاوي، وحنا مينا، وتوفيق يوسف عواد والطاهر وطار، ووسيني الأعرج، وغيرهم- بما حملته من مواقف فكرية اشتراكية الثائرة على الرجعية والأوضاع الاستعمارية، قد جسدت الفكر الحداثي المؤمن بالتغيير، الملزم للأديب أن يكون ناقدًا لواقعه ومتخيلاً لآفاق مستقبله، ساعياً للتحرر

من القهر والعبودية، حالما بحياة أفضل، بديلة عن الوضع الطبقي والحياة الاجتماعية المزرية التي تعيشها مجتمعاتهم آنذاك. بذلك حققت رواياتهم بعدا حداثيا قائما على مبدأ:

1- الثورة على أذنان الاستعمار وعملائه، حيث تمثل الحركات الثورية التحررية ضد النظم الجائرة والمستبدة مبدأ حداثيا، لأنها تعني الرفض وانكسار النموذج التقليدي⁽¹⁴⁾، وهذا ما تجسد في روايات الواقعية الاشتراكية، فقد أعطت وجهها للحادثة العربية في بعدها السياسي الفكري، التأثير على المستعمر وأذنايه السالب للحرية، والرافض لكل قيد مكبل أو قالب مجمد لفكر الإنسان.

2- تحقيق الرفاهية للفرد وضمان الحرية له: ولأن الحادثة مركزها الإنسان والفرد، فقد أثبتت الروايات العربية منتصف القرن العشرين أن للفرد الحق في الحرية. وحق العيش الرغيد.

يتضح هذان المبدآن جليا في الفكر الاشتراكي، الذي دعا إلى القضاء على كل أوجه الاقطاعية والتملك، وتمثلته روايات كثيرة من حقبة النصف الأخير من القرن العشرين، كرواية "الأرض" لعبد الرحمن الشراقوي، و"زقاق المدق" لنجيب محفوظ و"الزلازل" للطاهر وطار، و"الثلج يأتي من النافذة" لحنا مينا، ومن ثمة انعطاف الرواية عن تأليف قصص متخيلة بعيدة عن الواقع، إلى إنتاج مكون سردي هو صورة عن أحداث معاشة، تجسد فترة الستينات إلى أواخر الثمانينات للأمة العربية تم فيها انتقال من النظام الإقطاعي وملكي إلى الواقعية الاشتراكية، المحققة لمرتكز الحادثة الباحث عبر السؤال الدائم عن البديل الأفضل، الرامي إلى التغيير الإيجابي.

تحولت الرواية العربية الاشتراكية من مجرد مكون إبداعي إلى دعوة للتمرد على الأنماط الانتهازية وعلى أنظمتها الرجعية، وهي دعوة لا تولد فجأة إنما تتناسل

جراء التراكم المعرفي⁽¹⁵⁾ للفكر البشري الذي ينشد التغيير. فليست الاشتراكية حركة اعتبارية مفاجئة، إنما هي حركة تشملها الخطط والتنظيم المؤسس على مقومات وقوانين محكمة، حاولت الرواية الحديثة نشرها والانتصار لها.

فمثلاً، صورت رواية الزلزال للطاهر وطار وضعاً إيديولوجياً ومعرفياً لواقع الجزائر فترة السبعينات، الساعي لتغيير النظام عن طريق الاشتراكية. والذي أعطى الرواية بعدها الحداثي ترسيخها فكرة أن الاشتراكية لم تكن مذهباً اقتصادياً فقط، إنما هي مفاهيم شملت مجالات الحياة الإنسانية ككل. حيث يتجه مسرى سرد فيها مدفوعاً إلى إظهار هذا المشروع بمبادئه الماركسية. ويتضح في سعي الحكومة الجزائرية إلى تأميم الأراضي الإقطاعية، وإعادة توزيعها على المواطنين لتحقيق العدالة والمساواة

يغلب على الروايات الماركسية رسم البطل كفرد حديثي، يحمل لواء التجديد والتغيير، نذكر منها -تدليلاً- رواية حنا مينا "الثلج يأتي من النافذة"، جعلَ البطل فيها شاب سوري مثقف، تبنى الفكر الاشتراكي، كرس قلمه لخدمه الطبقة الكادحة أملاً في حصولها على حقها داخل المجتمع يوماً ما، تأثيرة قوي على العامة مما أغضب السلطة الرجعية في بلده فسجنته وعذبته ولاحقته، ليفر إلى لبنان ويختفي متخلياً عن نضاله.

وليس شرطاً أن يحمل البطل هذا الفكر الحداثي، إنما قد يتمثله غيره من شخصيات القصة كما نجده في رواية الزلزال، فالبطل فيها منذ بداية السرد لنهايته كان ضد الاشتراكية، فاقداً للوعي بالتغيير، حائراً في يجري ما حوله، وصل به الأمر إلى الجنون والضياح الدائم، حلمه بزلزال يتم به هدم الحياة وإنهاء الوجود، بينما الزلزال الذي صورته الكاتب الطاهر وطار في مجتمع الرواية وأهداه «إلى المناضلين العمالين وإلى كل من بنى ويبنى الثورة الزراعية في الجزائر، مساهماً في وضع

أسس صحيحة لمجتمع ديمقراطي متقدم» (الرواية، ص 101)، هو هدم للتسلط والأفكار الإمبريالية، فهو زلزال يهدم مفاهيم بالية لإيجاد البديل الواعد بحياة أفضل. تتمثل الروايتان مع ما كرسته الحداثة الغربية من مبدأ الثورة على الأفكار الرجعية البالية التي تحبط النمو والتطور الدائنين للفكر الإنساني، والقيام بثورات فكرية على جميع الأصعدة الدينية والسياسية والمعرفية، من أجل القضاء على الخنوع والخضوع للنموذج السائد في وقت ما، كالنظام الملكي والبابوية والإقطاعية والبرجوازية والأرستقراطية، كل هذا من أجل الحديث عن المساواة والعدالة والحرية⁽¹⁶⁾، وتحقيق الرفاهية واستقرار العيش، وإحداث تغيير شامل بترسيخ مقومات جديدة لعالم عربي حداثي.

2.4. المدينة مركز تناقضات الحداثة العربية:

لو عدنا لمدلول المدينة نجده في حد ذاته يحمل في طياته مفهوما حداثيا يعبر عن آفاق التغيير نحو مجتمع متحضر، فيحدد مصطلح المدينة «المدى الجغرافي للحداثة... يتضمن وجودها التحديث بالضرورة سواء أكانت هذه المدينة ذات طبيعة صناعية أم المدينة الكوزموبوليتية التي تعيش عصر ما بعد الصناعة»⁽¹⁷⁾ فنكون بذلك مرآة عاكسة للتجديد، تعكس «درجة التطور الحضاري التي وصلت إليها البشرية. إذ إنها ساهمت في التحول الجذري للحياة البشرية، حيث انتقل الإنسان من الحياة الريفية البسيطة المحدودة إلى الحياة المدنية المزدهرة»⁽¹⁸⁾ وإن تغير المجتمعات نحو التمدن، يعد إيذانا بمرحلة حضارية جديدة، نعتها بالحداثة والتي تعد حسب ديزيرة سقال وليدة المدينة أولاً، لعبت فيها مبادئ الأوروبية الدور الكبير في ترسيخها بالمعرفة والتقنية والصناعة، وبناء المدينة الحديثة.

أدت التغيرات الجذرية الحاصلة في المدينة، والتحولت التي جرت عليها بمرور سنوات إلى تصوير المدينة في الرواية بصور «متنوعة ومتعددة الأبعاد، حيث

تُظهر مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية. فتوصف بالألوان الزاهية والشوارع المزدهمة وبالحياة النابضة بالثقافة والنشاط. ومركزا للتنوع الثقافي والتفاعل الاجتماعي والتجارة والحياة الليلية... ومن جانب آخر، تصوّر الرواية المدينة بصورة مظلمة ومعقدة. فتصف الأزقة الضيقة والمباني المتهالكة والحياة اليومية المضطربة... وتعكس الصراعات الداخلية والتوترات الثقافية.»⁽¹⁹⁾ لتصبح المدينة الرقعة الجغرافية المؤطرة لفضاء الرواية المكاني، حيث تدور هناك الأحداث التي تعج بمظاهر التمدن، فأعتبرت مدن من قبيل مدينة «القاهرة وبيروت دمشق وقسنطينة والعواصم العربية»، الحيز الحدائي للرواية العربية الجديدة.

يدل وجود المصانع والنقابات والمدارس والنظام العسكري والشرطة والمسارح والتحكم في آليات التنمية في مدينة الرواية على وجود التقنية المولودة من رحم الحداثة، تمثل «الجهد المنظم الرامي لاستخدام نتائج البحث العلمي في تطوير أساليب أداء العمليات الإنتاجية بالمعنى الواسع، والذي يشمل الخدمات والأنشطة الإدارية بهدف التوصل إلى أساليب جديدة يفترض فيها أنها الأجدى للمجتمع»⁽²⁰⁾ فصورت الروايات العربية الحديثة المدينة بهذه الأساليب إيذانا بدخول الأمة العربية عهد التصنيع، وبناء مجتمعات متحضرة، تتبنى التخطيط وتسعى لتجسيده بالمعرفة وامتلاك للتقنية والتكنولوجيا، فلا تخلو رواية من الروايات العربية إلا وقد أدرجت بعض مظاهر حداثة المدينة من عمران وشوارع راقية وحدائق ومؤسسات حكومية وطرق معبدة...

وفي زاوية أخرى من السرد تعكس الرواية العربية المشهد المظلم من المدينة حيث الاكتظاظ والفقر وتفتشي الجهل والأمية وتشظي الذات، نافية عنها امتلاكها الحضارة العلمية مرتكز الحداثة؛ بل قد صورت تقاوم الآفات الاجتماعية في أوساط المجتمعات الرواية الناقلة لواقع الفرد العربي خاصة بعد فترة النكبات والحروب

والأزمات السياسية التي دخلت الأمة في صراع لإثبات الذات وتأمين لقمة العيش ومشهد نقل هذه الصورة السوداوية متشابهة في الرواية من المشرق العربي الى مغربه من ذاك ما نجده في رواية "شرف" لصنع الله إبراهيم، و"حب في المنفى" لبهاء طاهر و"الجوع" و"أصوات الليل" لمحمد البساطي، و"دم فاسد" لمصطفى الناعي، و"طيور أيلول" و"الإقلاع عكس الزمن" لإيميلي نصر الله، و"طواحين بيروت" لتوفيق يوسف و"رحيل البحر" لمحمد عز الدين التازي والدقلة في عراجينها للبشير الخريف، ووطن من زجاج لياسمينه صالح...

من ذاك ما رسمته الكاتبة رضوى في روايتها "أطياف" من مشاهد للخراب الذي عتش في جامعات مصر وتدهور المدينة وتحولها إلى مباءة من للقبح والتناقض بعدما كانت قطعة من أوروبا (21) فترصد الرواية ضياع وجه المدينة ونمو أخرى نموا عشوائيا، يميزها الفقر والبناء الفوضوي والسكنات القصديرية المتناقضة مع أسلوب المدينة الحديث.

إن وجه المدينة العربي ليس حداثيا أصيلا، إذ تنقصه ثقافة التمدن، لأنه يعكس تصورا لنموذج غربي، لم تستطع الروايات العربية الحديثة تمثله، نتج عن ذاك نقلها لحدائثه مقلوبة، وضحاها الناقد صبري حافظ في قوله: «كان جميل عطيه ابراهيم أول من نبه في رواية "النزول الى البحر" الى الخطر الذي ينطوي عليه تنامي عالم الهامش... وكتب تجربة الحياة في المقابر المحيطة بمدينة القاهرة، وكانت بداية النمو السرطاني للمدن العشوائية والأفق المسدود. وكان إبراهيم أصلان قد كتب في "مالك الحزين" ثم "في وردية ليل" و"عصافير النيل" عن انسحاق الإنسان الشعبي الفقير القادم من الريف بحثا عن الحياة الأفضل في المدينة» (22) مما يدلنا على أن استيراد نظم الغربية وأخذها جاهزة، دون تمحيص أو تدقيق لقيمها بما يتناسب والفكر العربي، ودون تشبع لكل المفاهيم وخلفياتها التي تنبتا وأهدافها

الساعية إليها، يجعلنا كالمندفع نحو حرب دون سلاح، ونحو مجهول لا يعي عواقبه. يصدق عندها قول جابر عصفور بأن تمثل المدينة عربيا كان على مستوى النظري- مدينة العلم والتطور التقني-، ولكنه نلمس النقيض على المستوى التطبيقي، إذ هي «المدينة التي تتصارع فيها الكلمة والرقم، والتي تنقسم ما بين ماضيها وحاضرها، والتي تعرف نعمة الجامعة وبركة المسجد...»⁽²³⁾.

ثقلت المدينة العربية في الرواية الحديثة بالتناقضات العديدة لغياب المعرفة والوعي الفكري العميقين بمفهوم الحداثة، فمازال الفرد فيها يحتكم لمقومات وطقوس تقليدية تتنافى مع صورة المدينة الحديثة، فنجد في ثنايا الرواية المباني الشاهقة والأحياء القصديرية، والجامعات والمصانع مع التجار الجواله والمتسولين، المدارس والنقابات ووجوه المثقفين إلى جانب الأميين المؤمنين بقدرة الأولياء والأضرحة والسحر والشعوذة. فهي تفاصيل مروية مع أطوار الحدث الروائي، تدل على أن الفرد العربي قد فهم الحداثة فهما شكليا «لا يعي من الحداثة إلا جوانبها السطحية أما البنية العميقة فلقد كانت غائبة أو مغيبة»⁽²⁴⁾، بغياب معرفته وثقافته عنها.

3.4. تشظي الذات العربية بين الواقع والمأمول:

عرفت أوروبا نهضة معرفية كبيرة استعدت فيها إلى تغيير أوجه العصور التقليدية المتحجرة، بثورة علمية زأدها التقنية والآلة وتبني النظامين الفكري والمادي ليصبح المال، العلم: مبدآن أساسيان في قيام الحداثة الغربية. ولقد أحصى الدكتور عدنان علي رضا النحوي عدة عوامل مولدة للحداثة منها التقدم العملي السريع في مختلف الميادين العلمية، ونمو العلوم الإنسانية في اتجاهات بعيدة عن الدين، والثورة الصناعية في أوروبا⁽²⁵⁾، لنقوم النهضة الغربية على امتلاك المعرفة باعتبارها المحرك الأساسي للنمو والتطور، وتعد «المواد البشرية المؤهلة وذات المهارات العالية أو رأس المال البشري أهم الأصول قيمة في الاقتصاد الجديد المبني على

المعرفة.»⁽²⁶⁾ فمنه تعتمد البنية العميقة التي تفتقد إليها الحداثة العربية عموما على المعلومة والمعرفة، فلم يعد التطور الحضاري قائم على التغيير والتجديد دون وعي علمي وتجمع مثقف.

لقد شهد الواقع العربي بدء من منتصف القرن العشرين تحولات كبيرة، نتيجة عوامل التاريخية والحضارية والثقافية والاقتصادية والسياسية، واكبت التطور العلمي السريع في العالم، تحوّل معها فكر الإنسان العربي وشخصيته، وأصبح يؤمن بالعلم والمعرفة كأداة للتغيير، «وكانت الرواية من أسبق الأشكال الفنية التي رصدت حركة هذا التحول وذلك بحكم ارتباطها الشديد بالواقع وحركة وحياة الناس.»⁽²⁷⁾ فقد جعل الكثير من الروائيين أبطال رواياتهم شخصيات مثقفة متسلحة بعلم، لاعتبار أن «المثقف إنسان يعيش بمعارفه وعلموه ومواقفه الحضارية العامة بسمات عالم جديد ومجتمع جديد وإنسان جديد أيضا»⁽²⁸⁾، يمتلك قدرا من المعرفة كوسيلة في يده للوصول إلى هدفه وتحقيق مراده.

وضح الناقد عبد الرحيم محمد⁽²⁹⁾ أن البطل في روايات جيل النصف الأخير من القرن الماضي شخصية مثقفة، ذات معرفة وصاحبة رأي مستقل، على دراية بأحوال مجتمعه، حاملة لقضاياها وساعية لتجديد فكره، ورفع الغبن عنه، من خريجي الجامعة، متحمسة لإحداث التغيير الإيجابي في وطنها، لكنها تصطدم بواقع تتحطم عليه آمالها وتخيب أحلامها، إذ تلاقي صعوبات جمة من السلطة الحاكمة بالسجن والتعذيب والتضييق والتشريد حتى تستنزف، لتعود فردا كباقي أقرانها تلهث وراء قوته يومها، والعيش بسلام، وتصبح المشبوهة غير المرغوب فيها، فتعيش التشطي والغربة في وطن ناضلت بغية تغييره للأفضل. لتصير مصائر هذه الشخصيات البطلة في الرواية العربية الحديثة متشابهة الملامح، رغم اختلاف مؤلفيها، وتباين مذاهبهم الفنية والفكرية وبيئاتهم الثقافية من المشرق الى المغرب. من ذاك ما نجده في رواية

"الأشجار واغتيال مرزوق" لعبد الرحمن منيف و"الهؤلاء" لمجيد طوبيا و"تلك الرائحة" لصنع الله إبراهيم و"الزمن المقيت" إدريس الصغير و"شكاوى المصري الفصيح" ليوسف القعيد و"اليتيم" عبد الله العروى...

تكون بذلك الرواية العربية قد نقلت صورة مجتمعات مخالفة في سيرورتها لمركزات الحداثة الغربية، العملية لبعد العلم كمقوم وكفاءة في يد الفرد الحداثي لإحداث التغيير والتطور نحو الأفضل. فقد نما المجتمع الغربي العلوم المختلفة وجعلها صورة في واقعه، واستحدث التقنية والتكنولوجيا في كل مجالات حياته، ولم يعد أفرادها يعتقدون إلا في العقل «حتى جعلوا من العقل إلها ومن العلم إلها»⁽³⁰⁾ بينما لم يستطع الفرد العربي أن يغير هذا الواقع، إنما عاش أحوالا متناقضة توضح أزمة وطنه العربي المتفاقمة مع كل جيل وفي كل عصر.

إن عائق تحديث الفرد العربي في الرواية ليس مرهونا بتقص الاقبال على العلوم والتعلم، بقدر ما أن عائقه متعلق بوجهتين سياسية واجتماعية؛ يكمن العائق السياسي في كتم الأصوات المثقفة عن التعبير، وحريتها في تقرير مصيرها واختيارها لأنظم عيشها- وقد بناه أعلاه-، أما العائق الاجتماعي فتتمثل في الفقر والأوضاع المتدنية للمثقف العربي، والذي صورته الروايات العربية الحديثة على أنه بطل مثقف من عامة الشعب، فنجد مثلا نشأة المثقفين في الرواية المصرية⁽³¹⁾ تتحدر من بيئة اجتماعية فقيرة سواء أكانوا من الريف أو العواصم والمدن، يعيشون في صراع ومعاناة لاصطدام محاولاتهم للتزود بالمعرفة، بعقبة اللهث وراء لقمة العيش، الأمر الذي ألجأ العديد من المثقفين الى بيع كتبهم تراثهم من العباقرة الشرق والغرب لمجرد الحفاظ على كيانهم المادي، ولم تكن هذه العقبات مجرد افتعال من الروائيين في تأليفاتهم بل هي حقيقة واجهتها أجيال كاملة من المثقفين المصريين وطرحتها الرواية العربية بمصر، وقس على ذلك ما تشابهه من روايات في باقي الوطن العربي.

خاتمة:

نخلص مما سبق إلى النتائج الآتية:

- تعد الحداثة سلبية مجتمع غربي تحمل فكره وقيمه ونظرته للوجود.
- بنيت الحداثة على مرتكزات غربية تتماشى مع معتقداتها العلمانية المادية.
- تركز الحداثة الغربية على العلم والعقل والتقنية، وإعلاء سلطة الذات، والدعوة للتححرر التام، وتبني وأساليب كتابة جديدة تتماشى مع وتيرة التقدم المتسارع.
- حمل التجريب للرواية العربية الحديثة أساليب سردية حديثة تتماشى مع تحولات وضعها الراهن.
- جسدت الرواية العربية الحديثة قيم الحداثة الغربية بجدلية التناقض بين التمثل من عدمه؛ حيث صورت:

- الدعوة إلى التححرر في ظل تسلط النظام السائد.
- تبني الفكر الاشتراكي كبديل مثالي عن الأنظمة الإقطاعية والأنظمة الرجعية.
- مشهد المدينة العربية الحديثة المتناقض والمتباين بين التحضر والتخلف لفقدان المعرفة والوعي بها، فلا وجود لتغيير وتطور دون وعي بقواعده.
- لحظة التشظي والصراع للذات العربية، بين حاضر تعانیه ومستقبل لم يتحقق إلا في عالم أفكارها.
- الواقع العربي الحداثي بؤرة جدل بين التقليد والتجديد، والنمطية والتغير.

قائمة المراجع:

- 1 -لويس معلوف، منجد معجم مدرسي للغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط 7، 1931، ص: 116.
- 2 -خيرة حمر العين، جدل الحداثة في نقد الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1996، ص: 25.

- 3 -أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، مجلد 1، ط 1، 2008، ص: 454.
- 4 -أدونيس، علي أحمد سعيد، فاتحة لنهايات القرن: بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط 1، 1980، ص: 321.
- 5 -خليل أبو جهجه، الحداثة الشعرية العربية بين الإبداع و التنظير والنقد، دار الفكر، لبنان، ط 01، 1995، ص: 17.
- 6 -خليل الموسى، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، مطبعة الجمهورية، دمشق، سوريا، ط 01، 1991، ص: 9 .
- 7-محمد الشيخ وباسر الطائري، مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة حوارات منتقاة من الفكر الألماني المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط 1، 1996، ص: 12، 15.
- 8 -ديزيرة سقال، الحداثة ونا بعد الحداثة في الشعر العربي المعاصر، (د د)، (د ط)، 2020، ص: 143.
- 9 - خليل الموسى، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، المرجع السابق، ص: 11.
- 10 -المرجع نفسه، ص: 9.
- 11 -حسام الخطيب، ملامح في الأدب والثقافة واللغة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1977، ص: 13، 42.
- 12 -خليل الموسى، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، المرجع السابق، ص: 11.
- 13 -خليل أو جهجه، الحداثة الشعرية العربية بين الإبداع والتنظير والنقد، المرجع السابق، ص: 22.
- 14 -خيرة حمر العين، جدل الحداثة في نقد الشعر العربي، المرجع السابق، ص: 39.
- 15 -كريم الوائلي، تناقضات الحداثة العربية، دار الكتب والوثائق، بغداد، العراق، ط2، 2018، ص: 85.
- 16 -رضا عامر، الحداثة وتجلياتها في الشعر العربي المعاصر، مجلة المعيار، جامعة تسمسليت، الجزائر، ع 15، 2016، ص: 144.
- 17 -جابر عصفور، هوامش على دفتر التنوير، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص: 63.

- 18 - بختي البشير، أزمة المدينة العربية بين الهوية الأخلاقية والتحديات الحضارية في رواية "روائع المدينة 2" لحسين الواد، مجلة التأويل وتحليل الخطاب، جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية، المجلد السادس، العدد الأول، ماي 2025، ص: 62.
- 19 - المرجع نفسه، ص: 62.
- 20 - فليح حسن خلف، التنمية والتخطيط الاقتصادية، عالم الكتب الحديث للنشر، أريد، الأردن، 2006، ص: 197.
- 21 - صبري حافظ، الرواية العربية والتحول الاجتماعي والثقافي، مجلة تبين للدراسات الفلسفية والنظريات النقدية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، العدد 2، خريف 2016، ص: 14.
- 22 - المرجع نفسه، ص: 13.
- 23- جابر عصفور، هوامش على دفتر التنوير، المركز الثقافي العربي، المرجع السابق، ص 65.
- 24 -كريم الوئلي: تناقصات الحداثة الغربية، المرجع السابق، ص: 101.
- 25 -عدنان علي رضا النحوي، تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها، دار النحوي، السعودية، ط 02، 1994، ص ص: 56-57.
- 26 -حسين عبد المطلب الأسرج، 2065 الريادية ودورها في التنمية العربية في ظل اقتصاد المعرفة، (د د)، (د م)، 2010، ص: 7.
- 27 -عبد الرحيم محمد عبد الرحيم الكردي، دراسات في الرواية العربية، (د د)، (د م)، ط 1، 1990، ص: 3.
- 28 عبد السلام محمد الشاذلي، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة 1882 1952، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط 1، 1985، ص: 471.
- 29 -عبد الرحيم محمد عبد الرحيم الكردي، دراسات في الرواية العربية، المرجع السابق، ص: 4.
- 30 -عدنان علي رضا النحوي، تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها، المرجع السابق، ص 95.
- 31 -عبد السلام محمد الشاذلي، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة 1882 1952، المرجع السابق، ص-ص: 471-472.